

سلسلة سورة المائدة (٤ - ٤)

دروس من هدي القرآن الكريم

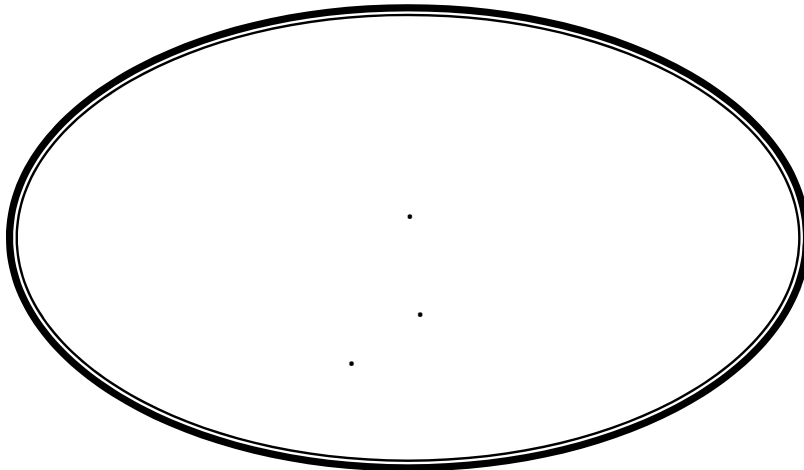
سورة المائدة

الدرس الرابع

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

بتاريخ / ١٦ / ١ / ٢٠٠٢ م

اليمن - صعدة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

لا يزال الكلام حول موضوع الآيات التي تحدثنا حولها من خلال اليومين الماضيين، الآيات من [سورة المائدة]. وكنت أريد اليوم أن يكون بداية الحديث عن كيف تتولى الله سبحانه تعالى، وكيف تتولى رسوله (صلوات الله عليه وعلى آله) وكيف تتولى علياً (عليه السلام). كيف نكون من أولياء الله. ومن أولياء رسوله ومن أولياء وصي رسوله (صلوات الله عليه وعلى آله)، وسنبداً بالحديث عنها إلا أنه ظهر أنه من المناسب أن نتحدث عن نقطة واحدة لها علاقة بما نتحدث عنه حول قضية أبي بكر وعمر باعتبارها قضية ذات صلة كبيرة بولاية الإمام علي (عليه السلام).

ونحن - كما قلنا أكثر من مرة - في مرحلة يجب أن نناقش فيها كل شيء، وأن نقف على الحقائق. نحن الزيدية سكتنا قرونًا وليس فقط أجيالًا، وكان متأخرون من الزيدية يرون بأنه من الممكن التوقف والسكوت حول قضية أبي بكر وعمر، من أجل الحفاظ على التوحد مع الآخرين، ومراعاة مشاعر الآخرين. وكانت هذه الفكرة جيدة لو كان هناك من يقدرها، وكان بالإمكان أن نلتزم بها لو كان الآخرون يقدرونها أيضاً، لكن ما الذي حصل؟ سكتنا قرونًا، مئات السنين. وكان السكوت عن هذه القضية ليس على أساس إقرار بشرعية خلافتها، ولا من منطلق التعامل باحترام وتعظيم لهما، وإنما من أجل تهيئة الأجواء لوحدة المسلمين مع بعض، واحترام لمشاعر الآخرين من السنية، سواء من كانوا في اليمن أو خارج اليمن.. كنا نسكت مع اعتقاد أنهما - أي الشيخين أبا بكر وعمر - مخطئون عاصون ضالون، كما قال الإمام لله عبد الله بن حمزة لله قال: [نعتقد أنهم أخطئوا وعصوا وضلوا في ما وقع منهم بعد موت رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله]. بهذا المنطق قال الإمام لله عبد الله بن حمزة لله. ما الذي حصل؟ لما سكتنا عنهم كمخطئين قَدَّموا لنا من قبل الآخرين - الذين لم يبادلونا الشعور الجيد و يقدروا لنا أننا سكتنا من منطلق احترام مشاعرهم وحفاظًا، أو تهيئة أجواء، إن كان هناك أي فرصة للتوحد معهم - انطلقوا هم ليقدموهم لنا ولأبنائنا كخلفاء، ويقدموهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه)، سكتنا عنهم كأسماء أبي بكر وعمر فتحركوا هم عندما تغير الزمن وعندما أصبحت الدولة لهم يقدموهم لنا بأسماء كبيرة: [الصديق والفاروق]، سكتنا عنهم سكتنا عن أبي بكر وعمر فأصبحوا يقدمون لنا معاوية ويزيد أيضاً. مناهجنا الدراسية، ما يقال على المنابر، ما يقال في المعاهد، ما يقال في المدارس، ما يقدم في كل هذه المراكز العلمية والدينية والثقافية، داخل البلاد الزيدية هو كله عمل يعلم أبناء أولئك الذين سكتوا جيلاً بعد جيل يعلمون أبنائهم كيف أن أبا بكر وعمر [خلفاء وصديق وفاروق]، بل تفضلوا تقدم لكم أشخاص آخرين: عائشة ومعاوية ويزيد وعمر بن العاص وأبا موسى الأشعري والمغيرة ابن شعبة، وهكذا لم يراعوا مشاعرنا لم ينطلقوا هم ليتعاملوا معنا - في الوقت الذي أصبحت الدولة لهم - كما تعاملنا في الماضي من منطلق الحفاظ على الوحدة أو تهيئة الأجواء للتوحد معهم.

الشيعة في تاريخهم الطويل كانوا هم أكثر الطوائف حرصاً على تهيئة الأجواء للتوحد مع الآخرين، ولكن الآخرون لم يكن لديهم ذرة من حرص على أن يتوحدوا مع الشيعة، أو يلتفتوا إلى الشيعة، أو يحملوا ذرة احترام للشيعة. أذكر كلمة لمحمد جواد مغنية - أحد علماء الشيعة الاثنا عشرية - قال إنه يكفي الشيعة يفهمهم مئات السنين دليل على أنه ليس بالإمكان التوحد مع الآخرين، مهما انفتحنا نحن، مهما فتحنا قلوبنا، مهما عدلنا منطلقنا، مهما سكتنا عن ذا أو ذك أو هذه المسألة أو تلك، هم هم لن يقدروا لنا أي شيء من ذلك.

يوم كان أئمة الزيدية هم الذين يحكمون اليمن كانوا لا يفرضون على المناطق الشافعية، على المناطق السنية في اليمن لا يفرضون عليهم مؤذناً، ولا خطيباً، ولا إمام جامع، ولا قاضياً، ولا مفتياً، كانوا يجعلون القاضي من الشافعية، مفتي للشافعية من الشافعية، حتى وإن كان زيدياً يفتي بمذهب الشافعي للشافعية، يؤذن في بلدانهم بأذانهم، يصلون بصلواتهم، لا يتعرضون لهم.

وما الذي حصل لما تغير الوضع؟ يعملون على ما سماه أحدهم بـ [فتوحات] سماه أحدهم فعلاً فتوحات عندما سمع التأمين أصبح يرّون في مساجد صنعاء وصعدة وغيرها، قال: هذا يعتبر فتحاً. التأمين في الصلاة لم يراعوا مشاعرنا، وهم في مساجدنا، في بلداننا.

نحن سكتنا عن قضايا كبيرة، حساسة لديكم من أجل مشاعركم، فكيف أصبحتم أنتم ترون قضية ليست إلا مندوبة عندكم أنتم، التأمين فترحفون به زحفاً في المساجد، وتعتبرونه زحف فتوحات.

سكتنا عن أبي بكر وعمر فلم تسكتوا عن التأمين. سكتنا عن الإمامة فلم تبادرنا بالسكوت عن شيء واحد وإن كان من المندوبات أو الهيئات التي ليست واجبة لديكم.

هل هذا الطرف يمكن أن يتوحد معنا أو نلتف نحن معهم تحت راية واحدة وهم على ما هم عليه؟ لا.

سكتنا عنهم فلم يسكتوا عن أئمتنا، ولا عن علمائنا، ولا حتى عن الإمام علي (عليه السلام).

إذاً فالمسألة أي شخص يتوهم بأن بالإمكان أن يعدل منطق من هذا النوع، وتتحدث بلين عن القضايا هذه مراعاة للآخرين تقول: لا. هم أثبتوا هم في تاريخهم الطويل، أنهم ليسوا مستعدين إطلاقاً أن يقدرُوا أي شيء لنا، أي شيء يصدر منا مهما كان عظيماً، مهما كان كبيراً، مهما كان دليلاً على حرص من قبلنا على توحيد أو مراعاة شعور.

ومن يدري أنها قد تكون غلطة من المتأخرين من الزيدية أن ينطلقوا على هذا النحو، ولم ينطلقوا على ما كان عليه الأئمة القدماء من أهل البيت عليهم السلام، من أمثال الإمام الهادي، وعبد الله بن حمزة وغيرهما من الأئمة الذين عرفوا الواقع، عرفوا أولئك، عرفوا تثقيفهم من أين، عرفوا بأنه لا يمكن أن يلتئموا معهم، مع أن دعوتهم كانت دعوة توحيد، ودعوة لتوحيد الأمة، ومراعاة لمشاعر الأمة، واحترام لأي طائفة يحكم فيها أحد من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) لا تظلم، لا تهظم، لا يتعدى على حقها الفكري والثقافي، حتى اليهود أنفسهم وهم ذميون حظوا بالأمن في ظل دولة أهل البيت، وهم من هم في خبثهم، وعرف أهل البيت (عليهم السلام) كيف يتعاملون معهم بالشكل الذي يحفظ لهم حقوقهم، ويبعد المجتمع الإسلامي عن التأثير السيئ بهم، هم فيما هم عليه، ونحن في ما نحن عليه.

موقفهم يشهد بأنه ليس بالإمكان أن نقول -على نحو ما تسألنا بالأمس عنه- في ترتيبهم: علي وأبو بكر وعمر وعثمان والكل تتولاهاهم، وسنلتقي هنا تحت هذا العنوان، هذا لا يحصل. هم أثبتوا بأننا لو انطلقنا نحن نتول أبا بكر وعمر وعثمان وآخرين إضافة إلى الإمام علي عليه السلام لن يرضوا بهذا منا، بل سيفرضون علينا أن ننزل الإمام علي (عليه السلام) حتى نجعله رقم أربعة. لازم أن ننزل سيدة نساء العالمين، ونطلع عائشة التي يسمونها الصديقة بنت الصديق، ننزل سيدة نساء العالمين بنت سيد المرسلين ونطلع عائشة بنت أبي بكر الصديقة بنت الصديق لازم.

لا يقبلونك إطلاقاً ولا يتوحدون معك ولو كان على يديك سيتم فتح القدس، ما لم تُنزل هذا وتطلع هذا، هم أثبتوا بأنه ليس بالإمكان أن يبادلونا نفس الشعور، وإلا كان بالإمكان أن نسكت لو أن القضية سيكون لها ثمرة، ولو من باب التجربة لنعرف هل أن بالإمكان أن نقدم شيئاً بديلاً عما قدمه القرآن الكريم، وأن نقدم أنفسنا كمتسامحين بديلاً عن حُدّية القرآن وصرامته، ولو كان على سبيل التجربة، وقد جربت الزيدية فعلاً، وجربوا ليس فقط عشر سنين بل مئات السنين، جربوا وسكتوا.

والآن ماذا جنينا نحن من السكوت؟ نقول - لأولئك من أسلافنا الذين سكتوا -: هاهم من سكتهم مراعاة لشعورهم، هم يجرعون أبناءكم أبناء أبناءكم جرعات مركزة من الولاء الخاص لأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه بل ومعاوية، هاهم يعملون على طمس فضل الإمام علي (عليه السلام) وفضل أهل البيت (عليهم السلام)، بل هاهم يتجاوزون إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، فماذا جنينا نحن؟

وكما قلت أكثر من مرة أن ألف وأربع مائة سنة فيها عبرة كافية، وفيها دروس كثيرة جداً لكل شيء فالواقع هذا شهد كل شيء، وحقائق تجلت على طول القرون الماضية وفي هذا العصر بالذات بشكل يساعد جداً على كشف الحيل، أو البحث عن الحيل الإسلامي الصحيح، لمشاكل المسلمين، وهم من يقولون بأن الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله)، قال: ((لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)). صلح أول هذه الأمة على يد رسول الله (صلوات الله عليه

وعلى آله) وبالقرآن الكريم، أو كان ما قدم لإصلاحها وإن لم تصل إلى الدرجة المطلوبة فعلاً، ما قدم لصلاحها هو ماذا؟ هو القرآن الكريم والرسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، فلنرجع إلى القرآن الكريم، وإلى الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله)، وما نبهته، وما نتحدث عنه إنما هو في إطار أن نعود إلى القرآن الكريم وإلى الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) في هذا العصر الذي بدأ أننا في أمس الحاجة إلى العودة إليهما، وحتى يكون لدينا ولاء للإمام علي عليه السلام، وحتى لا يبقى لدينا ذرة من ولاء للآخرين الذين ضربوا هذه الأمة.

هذه الأمة - في الواقع لو تفهمون أنتم - أو [هذا العالم ب كله هو عالم أبي بكر وعمر] هل تعرفون ما تعني هذه العبارة: [هذا العالم ب كله هو عالم أبي بكر وعمر]. لو أن الإمام علي عليه السلام هو الذي تولى أمر المسلمين من بعد رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، لقدّم هذا العالم على نحو آخر، على نحو آخر.

لم يكن تأثيرهم فقط هو داخل المنطقة العربية أو داخل العرب فقط لأن العرب كانوا هم من قد أهلكوا بالقرآن وبالرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) لأن يحملوا لواء الإسلام للأرض كلها للعالم كله، فما حصل من تقصير داخلهم وما حصل من خلل كبير داخلهم هو نفسه الذي نتج عنه هذا الخلل في العالم كله.

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } { آل عمران: من الآية ١١٠ } ألم تكن هذه هي المسؤولية التي أنيطت بهم؟. { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } للعالم، ما الذي وقّف هذا الظهور؟. وهذا الإخراج؟. ما الذي مسخ صورة هذا العالم؟. إنهما الشيخان أبو بكر وعمر، وعمر بالذات عمر بالذات هو مهندس هذا العمل في العالم الذي نحن فيه الآن، وجه العالم الآن هو وجه أبي بكر وعمر فعلاً ليس عالم محمد رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، ليس عالم الإسلام، ليس عالم الإمام علي (عليه السلام).

من أجل أن نفهم هذا كله نعود إلى التحدث عن قضية نقول: بأنه لا يمكن أن تصل الأمة إلى حل إلا بعد تحديد موقفها وتصحيح نظرتها ابتداءً من مفترق الطريق من هناك من عصر رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، ومن بعد وفاته، هناك بداية مفترق الطرق.

أليست الطريقة الصحيحة أنك عندما تخطى وأنت تتجول في شوارع مدينة لا تعرفها أن تحاول ترجع إلى نقطة الصبح إلى حيث تتذكر المكان الذي هو صواب لديك، وتعرفه، ثم تتحرك من جديد، باتجاه تكون واثقاً بأنه يؤدي بك إلى المكان الذي تريده، أما عندما لا ترجع من مفترق الطرق فأنت تتخبط، وأنت تخطى فربما لا تجد حلاً، إلا بأن ترجع من الشارع الذي غلقت فيه، ارجع ارجع إلى نقطة الصواب ثم تتحرك بشكل صحيح من هناك.

قد يقال: لكن حصل فتوحات في أيام عمر فلو أن القضية مرتبطة بالإمام علي (عليه السلام) لما حصل فتوحات وانتصارات للمسلمين. أليس هذا هو ما يردد لعمر: فتوحات وفتوحات إسلامية في أيام الفاروق، وهكذا العبارة ترداد وترسخ في أذهان الطلاب، وكلكم تسمعون بها.

نريد أن نعرف هذه النقطة.

كنت قد تحدثت مع بعض الشباب عنها، ولكن تذكرت بأني لم أتحدث عنها حديثاً عاماً معكم فمناسب أن نخرج بشيء منها لنعرف هذه الفتوحات وما هي؟. وكيف تمت؟.

عبارة (فتوحات) نفسها تقدم بشكل كبير تعطي المسألة أكثر من واقعها، ولكن فلندعها فتوحات، ولندعها عظيمة، ثم نقول لأولئك: من الذي قاد هذه الفتوحات؟.

سيقولون: عمر. سلمنا أنه عمر.

من الذي تحرك في تلك الفتوحات؟. هل هم الجيش الذي تحرك مع النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) في [غزوة تبوك]؟. هل هم أصحاب رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؟. هل هم أولئك الناس الذين كانوا في أيام النبي؟. سيقال: نعم الصحابة، هم أولئك. سلمنا أيضاً، ولكن قفوا لننتأمل قليلاً:

تحركوا في أيام عمر بنشاط أليس كذلك؟. تحركوا بنشاط وفاعلية، بينما سورة التوبة التي تحدثت عن آخر غزوة جماعية للأمة.

ومن خلالها تلاحظ حنكة رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وتحركه القرآني ونظرتة العميقة إلى الأمة إلى آخر أيام التاريخ، كيف وضع الدروس؟

سورة التوبة تحدثنا عن وضع غير طبيعي حصل في أيام إعداد الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) أولئك الناس، ذلك المجتمع لمواجهة الروم في غزوة تبوك، ما الذي حصل؟ تتأقل، تباطؤ، تخلف، قعود، وآيات القرآن في التوبة تهاجم، وتدفع بعبارات قاسية، بعبارات تعتبر بالنسبة للشخص الذي يقعد والذي يتخلف إهانة تعتبر إهانة له، عملية دفع، عملية زعزعة، محاولة تشجيع، وحركة نفاق تبدو على أوسع نطاق. لاحظوا [سورة التوبة] -عندما ترجعوا إليها- كيف بدأت بحديث عن المناقطين لأنهم تحركوا بشكل كبير.

وعادة عندما يتحرك مناقتون بأعداد كبيرة منهم معروفون، ومنهم غير معروفين، ومناقتون ألوان: منهم من هو لا يزال كافر في باطنه مظهر للإسلام، ومنهم من هو مسلم، ولكنه مازال من النوعية التي في قلبها مرض، من النوعية التي يؤثر مصالحه، من النوعية الذي يؤثر الأنانيات، ونظرات معينة لديه، أعداد كبيرة تحركت وعندما يتحرك المنافقون في ظروف كذلك يدل على أن المجتمع أصبح في ما ظهر عنه قابل لأن يُزعزع، ويُثبّت.

سنرى كيف أن أولئك الذين انطلقوا فيما بعد في أيام عمر بنشاط ومعنويات مرتفعة هم الذين كانوا متناقطين، قعد منهم من قعد، وتخلف من تخلف، وتتأقل من تتأقل، وتأتي التوجيهات القرآنية الحامية، الساخنة بالدفع بهم، ما الذي حصل؟ وكيف يمكن أن نحلل هذه المسألة؟

نقول: لا تخلوا -بعد أن سلمنا أن القائد هو عمر وأن أولئك الجيش الذين تحركوا في [اليرموك والقادسية] هم هؤلاء- إما أن يكون عمر أقدر على قيادة الأمة من رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله، وكانت توجيهاته ومنطقه أكثر فاعلية من القرآن إذاً فلماذا لم يكن عمر هو النبي؟ ولماذا لم نكتف بتوجيهات عمر عن القرآن؟ هل بالإمكان أن نقول أن عمر كان أقدر على قيادة الأمة؟ وأكثر حنكة وأكثر شجاعة من رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)؟ وأن توجيهاته كانت تعطي فاعلية للأمة أكثر من توجيهات القرآن في سورة التوبة؟

إن سلموا ما الذي عملوا؟ ألم يجنوا على محمد (صلوات الله عليه وعلى آله)؟ ألم يجنوا على حكمة الله؟ على قوله تعالى {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} (الأنعام: من الآية ١٢٤) لكن كيف ساءت هذه المسألة عند الكثير؟ لأنه بعد أن قدم محمد صلوات الله عليه وعلى آله كمَوْعِظٍ مسكين لا يملك إلا الأخلاق، لا يعرف كيف يتحرك، مسكين ليس لديه حنكة سياسية ولا قدرة قيادية عسكرية، هكذا قدم محمد (صلوات الله عليه وعلى آله)، إنسان، مسكين يثير الرحمة عليه، مجرد مَوْعِظٍ، مرة في المسجد، ومرة في الشارع، ومرة في أوساط الجيش، لكن عمر، وعبقرية عمر وسياسة عمر، وحنكة عمر.. وإلى آخره.

فعلاً احتاجوا - نحن نقول أنهم يتجنّبون على رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) - أن يصنعوا لرسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) شخصية هزيلة سواء من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون إن قلنا من حيث لا يشعرون لأن حرصهم على ترميز هؤلاء وتكبيرهم أنساهم أن يهتموا بالشخص العظيم بمحمد (صلوات الله عليه وعلى آله) فعملوا على تقديمه في ذهنية الأمة بشكل آخر حتى يتسنى بأن يصعد عمر في مجال آخر.

بل بلغ بهم الأمر إلى أن قالوا: إن عمر كان ملهم، وأن القرآن كان يتنزل ليوافق عمر في أشياء كثيرة، حتى في ما يتعلق بحياة النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) الخاصة وبأموره الخاصة، فيروون أنه كان يقول: يا رسول الله لو أنك سترت نساءك أو عملت لهن ملابس أو حجبت نساءك، فنزل القرآن يأمر النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) بأن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين يدين عليهن من جلابيبهن. قال: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والظاجر فلو حجبتهن، فنزلت هذه الآية.

إذاً فإما أن يكون عمر هو أعظم قيادة وحنكة وتوجيهاته أكثر فاعلية من قيادة الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله)، ومن توجيهات القرآن، وإما أن نقول بأن عمر لم يكن كذلك. فلنرجع إلى الآخرين إلى الصحابة أنفسهم وإلى ذلك المجتمع الذي تحرك بتأقل في غزوة تبوك، ثم تحرك بفاعلية ونشاط في [القادسية] وفي [اليرموك]، هل عندما انطلقوا بفاعلية ونشاط هل كانوا -وهم الذين يتباطئون مع رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وتتأقلوا- هل كانوا أكثر طاعة لعمر من رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فهذه سببة لهم، عندما يتأقلون

تحت قيادة محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو أعظم من عمر ويتناقلون على الرغم من توجيهات القرآن، وتوجيهات القرآن أعظم من كلمات عمر القليلة، وغير البليغة وغير المشجعة، فإذا كانوا أطوع لعمر من محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) رسول الله فماذا يعني هذا؟

هل يستحقون أن تقال كلمة واحدة في التعظيم لشأنهم، أوفي التقدير لهم إذا كانوا أطوع لعمر من محمد (صلوات الله عليه وعلى آله).

إذاً فما المخرج من هذا؟؟ كيف يمكن أن يخرجوا من هذه؟

إن كان ذلك من أجل عمر إذاً فعمر أقدر من الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) إذا كان ذلك عائد إلى الجيش نفسه، إذاً فالجيش أطاع عمراً أكثر مما أطاع الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله)، وكل واحدة منها تعتبر سبباً لهم.

ما الذي حصل؟ ومن الذي صنع تلك المعنويات؟ من الذي صنع ذلك الانتصارات؟ إنه رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) هو الذي صنع ذلك الانتصار الذي وقع في [اليرموك والقادسية] وغيرهما، هو الذي عمل طول حياته وخاصة بمرافقة القرآن الكريم وخطبة موحدة من قبل القرآن ومن قبل الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) [أعد تلك الأمة لتكون هي من تضرب] الأمم الأخرى الطاغية الظالمة من تضرب الدول الكبرى في عصرهم وفيما بعد هو الذي عمل على رفع معنوياتهم.

القرآن دفعهم دفعاً رهيباً في غزوة تبوك، مع أن الله يعلم أنهم لن يواجهوا بقتال، أخرجوا، حتى ثلاثة أشخاص عندما تخلفوا ماذا كان موقف النبي منهم (صلوات الله عليه وعلى آله)؟ قال: لا يكلمهم أحد.

كان استنفاراً عاماً لأن المسألة كان الجانب التربوي فيها للأمة أكثر من احتمال الموجهة العسكرية من خلال القرآن نفسه، خرجوا متناقلين، ووضع اقتصادي سيئ، ومعنويات هابطة جداً، هم عدد قليل سيواجه أكثر من مائة ألف أو مائة وثلاثين ألف جندي حشدتهم دولة الرومان. خرجوا بتناقل، وتباطؤ ومعنويات هابطة وزحزحة.

ولم يحاول الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) أن يعود إلى دولة كسرى إلى دولة الفرس وهي كانت أيضاً الدولة العظمى الثانية في ذلك العصر ليستمد منها؛ لأنه سيواجه دولة كبرى، والدولة هي لا تزال في صراع مستمر مع دولة الفرس فتكون فرصة مهيأة له بأن يحصل على دعم من الفرس، من الأكاسرة فيشدوا أزره فيهاجم الدولة الرومانية، لم يحصل هذا، ولم يحاول، بل لم يفكر في هذا. أراد أن يربي هذه الأمة كيف تكون معتمدة على نفسها، وعلى ربها، وعلى كتابها، وعلى نبيها؛ لأنها تملك ديناً قيماً يستطيع هذا الدين أن يجعلها تقف على قدميها دون أن تحتاج لأحد، لا إلى شرق ولا إلى غرب، ولا إلى أمريكا ولا إلى روسيا، ولا إلى أطراف أخرى.

خرجوا متناقلين، جمعوا نحو ثلاثين ألفاً بعد الاستنفار العام والحشد الهائل والدفع الهائل، ثلاثين ألفاً توجهوا على بعد سبع مائة وخمسين كيلوا من المدينة باتجاه الشام.

فبدأ رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) شخص وكأنه - أمام الآخرين - لا يدري من سيواجهه، إذاً أحشد هذا الحشد، لكن حاول أن تضع هذا الحشد في أماكن تحصن منه البلاد الإسلامية التي قد أصبحت بين يديك، واتسعت رقعته بين يديك. لا. هو الذي هاجم وبادر بالهجوم هو، ليهاجم بأولئك الجيش، وبذلك العدد، ذا النفسيات الهابطة، والمعنويات المنحطة، إلى أقرب منطقة للدولة الرومانية، إلى تبوك.

الروم أزعجهم هذا أزعجهم فقرروا عدم المواجهة، ما الذي حصل؟ تحرك رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو ما يزال في تبوك تحرك بسرّياً هنا وسرّياً هناك، وعمل أعمالاً يتحدى يتحدى فارتفعت معنويات الناس بشكل رهيب جداً، مع أنهم خرجوا وهم يرون الروم مستحيل أن يواجهوهم.

بل كان المنافقون وبعض من تخلفوا من الأعراب تشجعوا إلى أن يدبروا مؤامرة ضد رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في المدينة نفسها ليمسحوا الدولة الإسلامية بكلها فترك لهم الإمام علي عليه السلام، الإمام علي عليه السلام هو صمام الأمان للدولة الإسلامية سيبقى في المدينة بعده، وهو من يخرج إلى أقصى منطقة.

ولهذا المنافقون عملوا دعاية ضد الإمام علي عليه السلام: أنه إنما خلفه في النساء والأطفال، أنه إنما استثقله، وكره خروجه معه. فلحق الإمام علي عليه السلام برسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) فقلده ذلك الوسام الذي

أبكم المنافقين وكمم أفواههم: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» فعاد الإمام علي عليه السلام إلى المدينة ورسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) توجه لقيادة الجيش إلى (تبوك). رجعوا من تبوك وهم كل واحد أصبح اثنين، ثلاثة في داخل رداؤه وإزاره، فقد قهروا الدولة العظمى في ذلك العالم وبدون مواجهة. ففيما بعد بقية معنوياتهم مرتفعة.

رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) كان يريد شيئاً عظيماً للأمة، يرفع معنوياتها، يرببها، يشد من أزرها، يقوي إيمانها، يرببها كيف تعتمد على نفسها، وفي نفس الوقت يختار لها القائد المهم العظيم الذي هو جدير بقيادتها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، في يوم الغدير.

لكن لما خسرت القائد هذا وبقي معها جانب من آثار ما رتبته الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) لها كأمة، أمة معنوياتها مرتفعة، وتمتلك قائداً عظيماً، خسرت ذلك القائد فطلع عمر.

وكيف يمكن أن يكون عمر بطلاً عالمياً وهو الذي لم يستطع أن يكون بطلاً أمام حصن واحد في خيبر، أمام أقلية من اليهود في خيبر، يصبح البطل العالمي!! لا. لا. لا يمكن.

فلنقل لأولئك الذين يتحدثون عن الفتوحات: لو تعلمون كم خسرننا، وما نسبة هذه الفتوحات التي يتحدثون عنها لو كان الإمام علي عليه السلام هو الذي قاد الأمة، وبتلك المعنويات التي رسخها النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) في نفوسها، في غزوة تبوك، لما كانت هذه الفتوحات التي حصلت على يد عمر تساوي معشار معشار ما يمكن أن يحصل في علم الله سبحانه وتعالى لو أن الإمام علي عليه السلام هو الذي قاد الأمة.

فنحن من يجب أن نبكي وليس من نفخر بأن عمر عمل فتوحات، وفتوحات. أنتم تجهلون كيف كان يمكن أن يكون الواقع لو أن الإمام علي عليه السلام هو الذي قاد الأمة. لكن عمر هو الذي قاد الأمة فحصلت تلك المعركتان: [اليرموك والقادسية] بمنطقتين، حصل أشياء لا تعد شيء فيما لو أن الإمام علي عليه السلام هو الذي قاد، في ما نعتقد بحسب فهمنا.

الذي جعل أولئك يتحركون بفاعلية هو رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) لأنهم ما زالت معنوياتهم مرتفعة لما صنعه فيهم رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) في غزوة تبوك.

إذاً فليس عمر وليست توجيهات عمر، عمر هو نفسه الذي حاول أن يخرج، وهم أثناء مواجهة الفرس في عهده فقال له الإمام علي عليه السلام: لا أقعد. هو يعرف ماذا سيحصل إذا خرج عمر، هناك في الجيش منهم أشجع ومنهم أقدر. إذا خرج سيكون هو القائد الأعلى وبالتالي سيعود يجن أصحابه وهم يجنونه إن عاد هو وأصحابه، سيؤدي إلى هزيمة منكرة. قال له الإمام علي عليه السلام: لا أقعد. ينصحه أن يجلس.

إذاً فالذي صنع انتصارات القادسية واليرموك هو محمد (صلوات الله عليه وعلى آله) وليس عمر. فينبغي لأولئك الذين يقولون الفتوحات أن يبكوا أنه فقط لم تحصل الأمة إلا على تلك الفتوحات وما نسبتها وما قيمتها لو كان الإمام علي عليه السلام هو الذي قاد الأمة.

إذاً فلا تعد مسألة الفتوحات شبهة في نفس الموضوع الذي نتحدث عنه، إنه خسارة، خسارة بسبب عمر فعلاً، وإلا لو كان الإمام علي عليه السلام هو الذي قاد الأمة لكانت الأمة هي الغالبة فعلاً، كما قال الله تعالى {هم الغالبون} ولم يحدد المسألة. اليهود والنصارى حركات أما الكافرون فكانوا أقل خطورة.

كانوا في ميدان المواجهة أقل خبرة من اليهود الإسرائيليين، حتى الفرس أنفسهم كانت روحيتهم أشبه شيء بروحية العرب في الطفرة هذه، لم يكن لديهم خبث اليهود، يضربك ثم يأتي ليدوس من فوق ظهرك وأنت تتبسم له، لم يكن عندهم هذه الخبرة وهذه الحنكة.

إذاً - من وجهة نظري أنا - لم يبق في مسألة الفتوحات ما يمكن أن يكون شبهة لمن يعقلها ولن يستطيع أن يفهمها، ومن أراد أن يجعلها بسبب عمر ستحصل تلك الإشكاليات التي تحدثنا عنها سابقاً.

وبإمكاننا أن نتحدث مع أي شخص يقول: لكن عمر كان له فتوحات لم تكن لعلي. فلنقل له كما ذكرت لكم. ولنعد بعد استكمال هذا الموضوع إلى محاولة أن نفهم كيف تتولى الله ورسوله والذين آمنوا. كيف نكون من أولياء الله؟ ومنهم أولياء الله؟

بعد أن عرفنا من قول الله سبحانه وتعالى { إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الرِّكَاتَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } (المائدة: ٥٥) التوجيه لنا - إضافة إلى ما تقدم في الآيات قبلها من التحذير من تولي اليهود والنصارى - التوجيه الذي يبعدنا عن أن نتولّى اليهود والنصارى، أو تكون وضعينا بالشكل الذي نقبل فيها - من حيث نشعر أو لا نشعر - أن نتولّى اليهود والنصارى.

بعدها { وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } (المائدة: ٥٦) يقول : ومن يتولى، نريد أن نعرف كيف تتولى الله ورسوله والذين آمنوا؟ وكيف نكون من أولياء الله؟.

الله سبحانه وتعالى قال في القرآن الكريم مخبراً عن حال أوليائه { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (يونس: ٦٤) { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } أليس هذا التعريف بأوليائه { الَّذِينَ آمَنُوا } : صدّقوا، ووثقوا، وفهموا ووعوا، صدّقوا بوعده الله لهم، ووثقوا بالله ربهم.

الوعود سواء ما كان منها متعلقاً بحالة المواجهة مع أعدائه وأعداء المسلمين، أو ما كان منها متعلقاً بالآخرة، أو ما كان منها متعلقاً بمغفرة الذنوب، أو ما كان منها متعلقاً بسعادة الأمة في الدنيا.

الذين آمنوا وصدّقوا ووثقوا بمثل قول الله تعالى { إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } (محمد: من الآية ٧) أليس هذا وعداً؟. يتطلب إيماناً. صدّقوا ووثقوا بمثل قول الله تعالى: { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ } (الحج: من الآية ٤٠) صدّقوا بوعده الله ووثقوا بقوة الله وعزته.

صدقوا وهو يتحدث عن واقع أعدائهم حيث يقول في ما يتعلق باليهود والنصارى { لَنْ يَضُرُّكُمْ أَلَّا أَذَىٰ وَإِنْ يَقَاتُواكُم يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ضَرِبْتَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَشَقُّوا إِلَّا يَجْبِلَ مِنَ اللَّهِ وَجِبِلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرِبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ } (آل عمران: من الآية ١١٢) أليس يتحدث عن واقع أعداءهم؟. وكيف سيكونون هم في ميدان المواجهة معهم؟. صدّقوا ووثقوا، آمنوا بمثل قوله تعالى { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ } (الفتح: من الآية ٢٢)

صدقوا بمثل قوله تعالى وهو يأمرهم بالجهاد { ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (التوبة: من الآية ٤١) علموا وصدقوا ووثقوا، صدّقوا بوعده الله للشهداء حيث يقول: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ } (آل عمران: ١٦٩) . آمنوا صدّقوا، ووثقوا. وصدقوا أيضاً بمثل قوله تعالى وهو يتحدث عن أوليائه في الآية السابقة { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (يونس: ٦٤) أليس هذا وعد إلهي؟ آمنوا وصدقوا ووثقوا.

وكم في القرآن الكريم من الوعود المهمة، من الوعود العظيمة، التي لها قيمتها وأثرها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لو وجدت من يؤمن بها، لو وجدت من يصدق ويثق بها، وعود تأتي من قِبَلِ اللَّهِ، وعود من قِبَلِ من له ملك السماوات والأرض، وله الدنيا والآخرة.

ولكن الشيء المدهش والغريب هو أننا كيف نصدق وعوداً تأتي من قِبَلِ الآخرين نحن نعرف أنهم كذبوا علينا في السنة الماضية، وقبل السنة الماضية، ثم يتحدثون بأنه من الآن فصاعداً سنفتح صفحة جديدة، فنصدق ونثق ونصفق.

لم نتعامل مع الله سبحانه وتعالى، ولم نصدق تلك الوعود المهمة، تلك الوعود العظيمة، وعَدَّ المسلمين حتى بالغنائم، وعَدَّهم بمناطق أخرى سيفتحونها { وَأَخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا } (الفتح: من الآية ٢١).

فلماذا كان من ميزة أولياء الله الميزة العظيمة هو أنهم يؤمنون بما تعنيه الكلمة أي يصدقون ويثقون.. ثم { وَكَانُوا يَتَّقُونَ } { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } لنعرف أن الذي يصنع التقوى هو الإيمان، متى ما أمنت، متى ما صدقت، متى ما وثقت، متى ما فهمت أهمية هذا الوعد، أهمية هذا الأمر، أهمية هذه المسؤولية هناك سترى كم يكون التقصير مزعجاً، كم سيكون التقصير مخلاً، كم سيكون التقصير سيئاً، فأنت حينئذٍ ستعمل من منطلق إيمانك الواعي، وفهمك الواعي إلى أن تكون متقياً من أن يحصل منك تقصير نحو الله سبحانه وتعالى، تفريط في المهام التي أصبحت تعرف

من واقع إيمانك أهميتها تخاف من تلك العقوبات التي توعدها من قَصْرٍ وَقَرَطٍ وخالف وعاند، فأنت تعمل على أن تتقي الله من أن يحصل منك ما تستوجب به غضبه، وما يجعلك أيضاً جديراً بأن ينزل عليك عقوبته، تلك العقوبة التي أوعدها بها. القرآن مليء بالوعد والوعيد، مليء بالوعيد الذي يعني التهديد على التفريط الذي يحصل من جانب الناس.

{ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } ولهذا نفهم كيف أن التقوى فعلاً هي حالة نفسية يخلقها الإيمان الواعي، يخلقها التصديق العملي، في نفس الإنسان فهو ينطلق من واقع إيمانه، ومن صدق وعيه وفهمه، نحو كل قضية لأنه يعرف أهميتها، وخطورتها ومسئوليته الكبيرة فيها، فيخاف الله من أن يقصر فيتقيته، إذاً هنا آمن واتقى { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }.

إذاً فكيف نكون من أولياء الله إلا إذا كنا نثق به، نثق بالله نعلم على الله، نتوكل على الله، نعمل على الحصول على أن نكسب ونحصل على رضى الله، نخاف من الله، نستعين بالله، نسترشد بالله، نستهدي بالله، نعتبره ولي أمرنا، هو هادينا، هو مرشدنا، هو من سيرعانا، من سينصرنا، من سيؤيدنا.. ولكن ليس مجرد كلام، ليس مجرد لقلقة السنة، بل تكون أنت فاهما وواعيا من هو هذا الذي تريد أن تعتمد عليه، إنه الله القوي العزيز القاهر فوق عباده، الذي له ملك السموات والأرض، وبيده خزائن السموات والأرض، بيده الأولى والأخرى، بيده الدنيا والآخرة، تثق به وثوقاً صادقاً عملياً لا يتزعزع أبداً أمام أي دعاية أو إرجاف، أو تخويف، تعتمد عليه، تتوكل عليه.

وما كان أكثر ما يردد الإمام الخميني رحمة الله عليه كلمة [يجب أن نعلم على الله] يقول للإيرانيين: اعتمدوا على الله، توكلوا على الله، بالاعتماد على الله نستطيع أن نتصر، بالاعتماد على الله نستطيع أن نقف على أقدامنا دون حاجة أن نستعين بهذا أو هذا ممن لا تمثل استعانتنا به شيئاً، مما لا يمكن الاستعانة بهم إلا وندفع من إيماننا، ومن ديننا ثمن الاستعانة بهم.

كيف لو فهم زعماء العرب الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، والتوكل على الله، لو كانوا بهذا المستوى كيف سيكونون في هذا العالم، لكن لا. انطلق كل منهم يحاول أن يستعين بهذا أو بهذا بتلك الدولة أو بتلك، في كل أمور، حتى في مجال الخبرة في كيف ينظف مدينته، في كل شؤون الحياة، أصبحوا يعتمدون عليهم.

إذاً فلنكون صادقين في إيماننا يجب أن يكون إيماناً واعياً بالشكل الذي يخلق لدينا هذه المقومات المهمة، ثقة بالله، اعتماداً على الله، حباً لله، استعانة بالله، توكلأ على الله، ألم يقل هو { وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون } { آل عمران: من الآية ١٢٢ } { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } { الطلاق: من الآية ٣ } أليست هكذا الوعود الإلهية؟. وهي وعود أصبحنا في واقعنا - كباراً وصغاراً - لا نثق بها.

من يمثلون أولياء الله حقاً في واقع إيمانهم وتقواهم لهم مواصفات في القرآن الكريم تتجلى في سلوكهم، مواصفات تعكس واقع نفسياتهم، تتجلى في أعمالهم في واقع الحياة.

فلنعد إلى جملة آيات من القرآن الكريم نتحدث عن صفات أولياء الله، الذين هم المؤمنون، والمؤمنون الذين هم على هذا النحو، يقول الله سبحانه وتعالى: { وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } { الشورى: من الآية ٣٦ } أليست هذه واحدة؟. انكالا على الله من منطلق الثقة بالله، والاتكال على الله لا يعني أن نوكل الأمور إليه فنضعه هو يعمل بدلاً عنا، ننطلق نحن في ميدان الحياة في واقع الحياة في أداء المسؤوليات، في أداء المهام، ونحن نتكل عليه حيث نهتدي بهديه، حيث نلتجئ إليه، حيث ندعوه.

{ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } من منطلق إيمانهم بأن الله هو ربهم، من يهمله أمرهم، من يعمل على تدبير شؤونهم.

{ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } { الشورى: ٣٧ }

لاحظ كيف سلوكياتهم تكشف واقع نفسياتهم، التي ملؤها الإيمان الواعي، الإيمان الراسخ، الإيمان الذي لا ارتياب معه، هم يجتنبون كبائر الإثم حياء من الله، ولما لكبائر الإثم من أثر في جعلهم غير جديرين بتحقيق وعود الله على أيديهم ولهم.

{وَأِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} لا يتجاوزون الحق، لديهم اهتمامات كبرى، لديهم حرص على رضى الله سبحانه وتعالى، فسيصفح وسيغفر لأخيه إذا ما بدرت منه إساءة أو زلة، هو لا يريد أن يفرق المجتمع في مشاكل ثانوية تصرفه عن القضايا المهمة التي يجب أن يعطيها كل اهتمامه، فهم عادةً إذا ما غضبوا لا يدفعهم غضبهم إلى التجاؤن ولا إلى الباطل، بل يغفرون أيضاً.

{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} (الشورى: من الآية ٢٨) لأنهم مؤمنون بربهم فاستجابوا له في كل ما أرشدهم إليه، وكل ما أراد منهم، وطلبه منهم.

{وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} (الشورى: من الآية ٢٨) أمورهم وهم في ميادين المواجهة، في ميادين العمل على إعلاء كلمة الله، في كيف يحافظون على صلاح المجتمع، في كيف يحققون التعاون على البر والتقوى، في كيف يؤهلون أنفسهم ليكونوا أمة تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر، يتشاورون في أمورهم كيف نصنع؟ ما الذي ينبغي أن نعمل؟ يشعرون بمسئوليات كبيرة وعظيمة، وهم في نفس الوقت نفوس متألفة قريبة من بعضها بعض، كل منها ينصح، كل منها لديه رؤية من واقع اهتمامه بواقع الحياة، بوضعية الأمة، ليسوا من أولئك الذين تمر الأحداث، وتمر الأوضاع السيئة وهم لا يلتفتون إليها، ولا يحملون أي رؤية عملية نحوها، ولا يفكرون في ماذا يصنعون من أجل المخرج منها، فأنت لا تجد لديهم أي فكرة، أما هؤلاء فاهتماماتهم تجعلهم جديرين بأن يكون لديهم أفكار ذات قيمة في مجال بناء الأمة، في مجال المواجهة لأعداء الأمة، في مجال الحفاظ على صلاح المجتمع، لديهم رؤى، ومتى يمكن أن يكون لديك رؤى؟ عندما يكون لديك اهتمامات كبرى بواقع الأمة.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (الشورى: من الآية ٢٨) يبذلون أموالهم، ومما رزقناهم ينفقون من علمهم، من مالهم، من خبراتهم، بأقلامهم، بأيديهم، بكل ما رزقهم الله من إمكانيات ينفقون، ينفقون في مجال ماذا؟ في المجالات التي يجب أن تهمهم كمسلمين، كمسؤولين أمام الله، كمؤمنين مصدقين بما وعد الله به المؤمنين في الدنيا وفي الآخر، فهم لا يبخلون؛ لأنهم يثقون بمثل قول الله تعالى {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} (سبا: من الآية ٣٩) {وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظلمون} (الأنفال: من الآية ٦٠) أليست هذه وعوداً؟ لكنها تتطلب إيماناً، وتتطلب أن تكون أنت ممن يحمل اهتماماً من واقع إيمانك حتى تعرف مدى أثر ما تنفق، وتعرف أنه يجب أن تبذل مالك، وتبذل من كل ما رزقك الله من خبراتك، وإمكانياتك.

فهم هكذا شأنهم كمؤمنين واثقين بوعد الله، حريصين على رضا الله، عارفين أثر الإنفاق في تحقيق ما يصبون إليه وما يريدون تحقيقه، فهم ينفقون.

{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} (الشورى: ٢٩) لديهم وعي إيماني بأن الصبر على الظلم لا يمثل إلا الصعّة والذلة والخنوع، لا قيمة له عند الله إذا لم يكن صبراً عملياً، إذا أصابهم البغي إيمانهم، تربيتهم الإيمانية ثقافتهم القرآنية جعلتهم يمتلكون نفوساً عالية، نفوساً أبيّة، نفوساً تفهم كيف ستكون العاقبة السيئة إذا ما خنعوا، إذا ما خضعوا إذا ما استذلوا وقهروا كيف ستكون الحياة، كيف سيصبح الدين، كيف سيضيع الحق، كيف سيسود الباطل، كيف سينتشر الفساد، فهم ينتصرون، ينتصرون إذا أصابهم البغي في أنفسهم لأن نفوسهم أبيّة، نفوسهم كبيرة لا يطيقون السكوت على أن يظلموا، وأن يهضموا، وأن يذلوا، ينتصرون لدينهم.

وعادة ما يكون أحياناً البغي عليهم هدفه البغي عليهم باعتبار ما يحملون في دينهم في كونهم هم طائفة محقة، في كونهم من يحملون اهتمامات بأمر الدين فالبغي عليهم هو عملية ضرب للدين من خلال ضربهم هم، فهم ينتصرون على من بغى عليهم، وليكن هدفه ما كان.

هكذا آية واحدة تعرض مثل هذه القيم المهمة، والصفات العليا لأولياء الله، هذه الصفات التي تجسد إيمانهم الحقيقي الصادق، والراسخ، الواعي.

يقول أيضاً سبحانه وتعالى عن المؤمنين، وهم بالطبع أولياؤه لأنه قال في مقدمة وصف أوليائه منهم؟ {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} آمنوا، كيف هذا الإيمان؟ هو هكذا إيمان من هذا النوع {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (العنكبوت: ١٥) هؤلاء هم أولياء الله،

الصادقون هم: أولياء الله، الصادقون في إيمانهم، آمنوا بالله ورسوله إيماناً واعياً لا ارتياب معه، ولا يمكن أن يتعرض لأي ارتياب أمام هذه الشبهة، أو هذه الدعاية، أو أمام هذه الإغراءات، أو هذا الترهيب، أو هذا الترغيب، إيماناً عملياً يفهمون الإيمان، الإيمان العملي الذي يجسدونه في التزاماتهم، وفي اهتماماتهم، أنه إيمان بقضايا، بمبادئ وعقائد، بأحكام تتطلب الالتزام بها وتتطلب أيضاً الدفاع عنها، وتتطلب أيضاً نشرها والعمل على إعلاء كلمة الله في سبيل تطبيقها وسيادتها في أرضه.

{ وَجَاهِدُوا }، جاهدوا من أجل ماذا جاهدوا؟ وبماذا جاهدوا؟ بأموالهم وأنفسهم، وهي أعلى ما يملك الإنسان: ماله ونفسه، فلتكن الأموال رخيصة، ولتكن النفوس رخيصة في سبيل من؟ في سبيل الله.

هؤلاء هم الصادقون، وحدهم هم الصادقون، والصادقون من هم؟ هم أولياؤه. أولياؤه من هم؟ هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هم من لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، المؤمنون من هم؟ هم من ينتفعون بالذكرى إذا ما ذكروا، لماذا؟ لأن نفوسهم مهتمة، قلوبهم مفتحة لتستقبل الهدى لتنتفع بالذكرى، ولهذا قال الله لرسوله (صلوات الله عليه وعلى آله) { وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } (الذاريات: ٥٥) وهم من سيحتاجون إلى الذكرى، وهم من تنفعهم الذكرى؛ لأنهم دائماً في عمل، في عمل وهم يزكون أنفسهم، وهم يصيغون نفسياتهم على أساس من هدى الله سبحانه وتعالى، وهم ينطلقون في سبيله، في سبيله يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، يواجهون في مختلف ميادين المواجهة لأعداء الإسلام وأعداء الأمة، فهم من تنفع فيهم الذكرى، من تنفع فيهم الذكرى المستمرة، هم من تبنيهم الذكرى { وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }. هم من قلوبهم التي ملئت إيماناً أصبحت على هذا النحو { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ } (الأنفال: ٢) لشورها بعظمة الله، لخشيته من الله، وخوفها من الله ورغبتها في رضى الله، ورغبتها في أن تحظى بقربه، ورغبتها في ما عنده.

وجِلَّتْ قلوبهم توجل، تخاف، تخفق، قلوب ما زالت مفتوحة لم يطبع الله عليها، لم يختم عليها، لم يضع عليها أكتة، لم تُدَسَّسها السيئات لم تدنسها الخطيئات والمعاصي، لم تهيمن عليها العقائد الباطلة، لم تقفلها العقائد الباطلة، إنها قلوب تتعامل مع الله سبحانه وتعالى وتتلقى هداياه، فكانت على هذا النحو توجل إذا ما ذكر الله.

{ وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } (الأنفال: ٢٤) ففي كل جلسة يزدادون إيماناً، ومع كل آية يسمعونها، ومن خلال كل آية من آيات الله يسمعونها يزدادون إيماناً، فليسوا من أولئك الذين يقولون { حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } (محمد: من الآية ١٦) هؤلاء قلوبهم ليست ممن طبع الله عليها، بل قلوب مستنيرة، [تتلى عليهم آيات الله] فيزدادون إيماناً، وهم يرون أنفسهم دائماً بحاجة إلى أن يزدادوا إيماناً؛ لأنهم يعرفون ما هو الإيمان، وهم في ميادين العمل الإيماني يحتاجون دائماً إلى زيادة إيمان.

لماذا؟ لأن كل إيمان في الإسلام هو عملي، وكل عمل في الإسلام له غاية إيمانية، فيزدادون دائماً إيماناً، فتتجلى لهم الغايات فتتجلى لهم الوقائع والأحداث من خلال آيات الله سبحانه وتعالى التي تتلى عليهم، تتجلى لهم من واقع الحياة، ومن خلال آيات الله في كتابه الكريم، تلك الحقائق التي ترسخ الإيمان في قلوبهم بصدق وعد الله لهم.

{ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } (الأنفال: من الآية ٢) ومن الذي يحتاج إلى أن يتوكل على الله إلا من لديه اهتمام بأمر الله، من هو دائم اللجوء إلى الله، من هو عظيم الثقة بالله، فتصبح صفة لديه، وتصبح صفة لديهم، هؤلاء المؤمنون أنهم دائماً على ربهم يتوكلون، لكن ليس - كما قلنا سابقاً - إيكال الأمور إليه فينطلق هو، فيكون واقعهم كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام { فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (المائدة: من الآية ٢٤).

يتوكلون على الله وهم في ميادين العمل لإصلاح الأمة والاهتمام بأمر الدين وإصلاح أنفسهم، اتكأهم على الله، اهتدأهم به، استرشدهم به، التجأهم إليه، رجأهم العظيم فيه، أن يوقفهم ويرشدهم ويهديهم ويلطف بهم ويرعاهم.

{ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } وما أكثر ما كرر التأكيد على إقامة الصلاة، لم تأت حتى بلفظ [يصلون] { يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } هي تشبه في ما يتعلق بالزكاة { وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }، فالزكاة لأنك مؤمن أنت من تنطلق لتؤتيها فتدفعها أنت

لا تنتظر إلى من يأتي ليأخذها قسراً منك، من واقع إيمانك وشعورك بالمسئولية أن تؤدي هذا الواجب العظيم عليك، الذي فيه رضى الله سبحانه وتعالى، كذلك الصلاة هم حريصون على أن يصلوا، ولكن صلاة قيّمة، حريصون على أن تكون صلاة لها قيمتها فيقيمونها على النحو الذي شرعت له، ويعملون على أن يحصلون من خلالها على تحقيق الغاية التي شرعت لأجلها، والصلاة لها معانيها العظيمة، لها قيمتها الكبرى، لها أثرها العظيم، إذا ما فهمنا معاني الصلاة وكيف نقيمها.

{ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }، نفس الكلام السابق تجد ليس هناك إيمان بدون إنفاق، بل أنت لا تحتاج إلى من يدفعك إلى الإنفاق في ما إذا فهمت مسئوليتك أمام الله سبحانه وتعالى، إذا ما أصبحت إنساناً تهتم بأمر دينه وعباده، إذا ما عملت كعضو في أمة تنطلق في الدعوة إلى الخير، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر، سترى ماثلاً أمام عينيك أهمية الإنفاق في هذه المجالات، إنما الذي يتقاعس عن بذل المال هو ذلك الذي لا يحمل أي اهتمام، وليس ربما في قلبه حتى مثقال ذرة من إيمان، يقرن الإنفاق هنا بالصلاة، الصلاة التي هي خير الأعمال، وأنت في ميدان الإقبال على الله سبحانه وتعالى يبرز الإنفاق في الجانب المالي من أهم الأعمال في ميدان العمل في سبيل الله تعالى.

{ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } هذه طبيعتهم، وهذه عاداتهم.. لاحظوا هنا يعرض صفاتهم التي هم عليها أصبحت شبه تلقائية لديهم، صفات أصبحت غرائز في نفوسهم: مجاهدين صادقين، يزدادون إيماناً، يتوكلون، يقيمون، ينفقون. لم تأت بشكل أوامر، هكذا أصبحوا، وهكذا يصبح من يكون إيمانه بالله إيماناً صادقاً، لأنه هنا يقول هكذا يكون المؤمنون عندما يقول إنما المؤمنون هكذا يكون المؤمنون، وهكذا هم المؤمنون حقيقة، الذي يكون شأنهم هكذا، إيمان بالله ورسوله لا ارتياب معه، جهاد في سبيله بالمال والنفس، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، إذا ثلّبت عليهم آياته زادتهم إيماناً، يتوكلون على الله، يقيمون الصلاة ينفقون مما رزقناهم، هكذا شأنهم.. { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } (الأنفال: من الآية)، كما قال هناك { أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } هنا: { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا }

{ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } (الأنفال: من الآية: ٧) والمؤمنون عادةً من يكون إيمانهم صادقاً بالله سبحانه وتعالى ويفهمون ماذا يعني الإيمان به، ماذا يعني، وما يتطلب من أعمال، وما يترتب عليه من مسئوليات، ينظرون إليها نظرة شرف واقتدار واعتزاز بها، أنهم أصبحوا من يحملها، هم فيما بينهم كالجسد الواحد، كل منهم يحرص على أن تكون علاقته بأخيه علاقة قوية، إنما المؤمنون هكذا شأنهم { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } (التوبة: من الآية: ٧١) من واقع ماذا أصبحوا هكذا بعضهم أولياء بعض بعضهم مع بعض، يقفون مع بعض يتعاونون، يبذلون معروفهم لبعضهم بعض، يقفون صفاً واحداً، كلمة واحدة، كتلة واحدة، جسداً واحداً، يهمهم أمر بعضهم بعض ؟ لأنهم نوعية تحمل شعوراً بمسئوليات كبرى، فينطلقون في البداية لتأهيل أنفسهم والحفاظ على وضعية تأهيلهم لأن يؤدوا مسئوليتهم التي ينظرون إليها كمسئولية كبرى لا يتحقق لهم صدق الإيمان مع التفريط بها، وأنها ليست من النوع الذي يسحبون عن المبررات لتقاعس عنها.

هكذا هم بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر- كما قلنا أكثر من مرّة دائرة واسعة يشمل كل مجالات وشؤون الدنيا والدين.

{ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (التوبة: من الآية: ٧١) ولاحظوا كيف يأتي الوعد بالمغفرة وبالرزق الكريم بالرحمة والجنة لهؤلاء الذين يقول عنهم هم الصادقون وهم المؤمنون حقاً، بعضهم أولياء بعض. ليشعرنا بأن هؤلاء هم وحدهم الذين سيكون لهم هذا الجزاء العظيم. أوليسوا من يضعون لأنفسهم صيغاً إيمانية يَفْصَلُونَهَا على حسب وجهة نظرهم، وعلى الواقع الذي يريدون أن يكونوا عليه هم، هؤلاء ليسوا ممن يقول عنهم { أُولَئِكَ }، ليسوا من أولئك الذين لهم مغفرة ورزقاً كريماً، ولا من أولئك الذين سيرحمهم الله في دنياهم وأخرتهم لأن الله هو ربهم وهو العزيز الحكيم.

المؤمنون بلغ بهم إيمانهم إلى درجات عليا من الإنشاد نحو الله سبحانه وتعالى، والرغبة في الحصول على رضاه والرغبة فيما وعد به أولياءه المؤمنين فأصبحوا لا يحتاجون -تقريباً- إلى من يعرضهم على الله ليبيعهم منه، بل هم من ينطلقون ليبيعوا أنفسهم من الله، ليبيعوا أنفسهم وأموالهم من الله، فالله يأتي ليشتري، بالشكل الذي يوحى،

وكأنها لم تحصل مساومة بل هم انطلقوا ليعرضوا أنفسهم وأموالهم في سوق الله، ليحصلوا على ذلك الثمن العظيم [الجنة]، {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ} (التوبة: من الآية ١١١) ماذا يريدون من أنفسهم وأموالهم عندما باعوها؟ هم يريدون الجنة. باعوها منه ابتغاء رضاه فمنحهم رضاه ومنحهم الجنة.

وعندما باعوها باعوها بصدق [بيع صرم نافذ] كما نقول في منطقنا [باعوها بيع صرم نافذ وطرقوا صبّ وصبّ وسيل وغيل] كما نقول نحن في مباحنا على هذا النحو، فانطلقوا ليقاتلوا في سبيل الله، وليس فقط بيع ولا يزال فيه خيار، وشرط أن يشاور والده إذا رضي، ويشاور والدته إذا كانت ستوافق وأعجبها الثمن لا بأس سيبيع وإلا فلا. ليس هذا بل هو بيع صرم نافذ يريدون الجنة، يريدون رضا الله.

ففيما تجسد هذا البيع؟ تجسد في قتالهم في سبيل الله، ذلك الميدان الذي يتطلب بذل النفس والمال، فها هنا يكون البيع، وها هنا يكون الشراء من الله سبحانه وتعالى {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} (التوبة: من الآية ١١١) وعندما ينطلقون للقتال في سبيل الله لا يتصورون بأن مجرد البيع هو أن يحضروا ميدان المواجهة بل ينطلقون في خوض الصفوف في عمّرات الأحوال يقاتلون.

وليس فقط يتفجعون كما كان بعض أولئك ممن يوصفون بأنهم عظماء فيقال عنهم بأنهم كانوا يحرسون رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله في معركة بدر ومعارك أخرى فتراهم عندما تصول الصولة من جانب الكافرين يكونون هم من أول من ينهزمون فيتركون النبي (صلوات الله عليه وعلى آله)، فليسوا هم من قاتل في الميدان، وليسوا هم من حافظ على النبي (صلوات الله عليه وعلى آله) في وقت الخطر، هذا ليس بيعاً.

هؤلاء ينطلقون ليقاتلوا بجديّة في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، هم باعوها من الله، لم يبيعوا مجرد تحرك وهمي لينتظروا هذا الطرف أو هذا الطرف من الذي سيدفع أكثر لنتحرك معه؟ لا.. ليحصلوا على أموال لأنهم قد خرجوا بشكلهم كمقاتلين خرجوا بشكلهم بأنهم كمقاتلين فيريدون من الذي سيشتري، من الذي سيدفع أكثر من الأموال من الذي سيعطي بندق، من الذي سيعطي ذخيرة، من الذي سيعطي رتب، من الذي سيعطي كذا ننطلق معه. هؤلاء ليسوا من هذا النوع، رأوا أن أنفسهم غالية، وفعلاً ((إن نفوسكم غالية ليس لها ثمن إلا الجنة)) هكذا ورد حديث بهذا المعنى عن رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله أن النفوس عظيمة وغالية ليس لها ثمن إلا الجنة، ماذا يعني؟ أ بذلها في سبيل تحصل على الجنة.

هؤلاء انطلقوا يقاتلون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فأمام إجراءات أعدائهم لا يفكرون أن يميلوا يميناً أو شمالاً؛ لأنهم لا يبحثون عن المال بل هم من باع المال، وأمام إرهاب وتخويف أعداء هم أيضاً ليسوا ممن يخاف الموت لأنهم من باعوا النفس أيضاً. فماذا يصنع معك العدو أكثر من أن يرعب أو يرهب، أكثر من أن يعد أو يتوعد؟.

فتصبح كل الوعود لا قيمة لها، وكل التوعد أمامك لا قيمة له، {بأن لهم الجنة}، وعد إلهي صدقوا به أيضاً. هكذا هو شأن أولياء الله الذين آمنوا، تصديق بثقة بأن لهم الجنة، ويؤكد الوعد {وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ} (التوبة: من الآية ١١١) أنني سأمنحهم الجنة فصدقوا وانطلقوا {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} (التوبة: من الآية ١١١) ما الذي يمنعه من أن يفي بعهدته؟، ومن الذي يمكن أن يحول بينه وبين أن يفي بعهدته؟، ومن هو ذلك الطرف الذي يملك ما يملك الله؟ حتى يمكن أن يكون مثله بالوفاء بعهدته، من هو ذلك الطرف الذي يمكن أن يكون أوفى من الله بعهدته؟ لا، {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ} (التوبة: من الآية ١١١) هذا ليس خسارة، هو بشارة {فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التوبة: من الآية ١١١).

المؤمنون الذين دفعهم إيمانهم وترسخ في نفوسهم من خلال هذا العمل ومن خلال هذا العمل، ومن خلال هذه الآية، ومن خلال تلك الكلمة، ومن خلال ذلك الموقف الذي تجسد في عمل الرسول صلوات الله عليه وعلى آله، لم يكن وليدة لحظة بل ترسخ في نفوسهم لأنهم كانوا هكذا {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ} (التوبة: من الآية ١١٢) هم هؤلاء المؤمنون الذين قال عنهم بأنهم باعوا أنفسهم من الله، كأنه قال هم الذين يمكن أن يصلوا إلى هذه الدرجة، هم أولئك الذين هم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرين المعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله.

وبشر المؤمنين.. ما هي البشارة من جانب الله؟ رضوانه، والجنة، والفوز في الدنيا والآخرة، الكرامة في الدنيا والآخرة، العزة في الدنيا والآخرة.

(وهم من كان إيمانهم إيماناً كاملاً، إيماناً وهم يتجهون نحو الله سبحانه وتعالى فتبرز من كل جوارحهم ما يجسد إيمانهم حتى وهم يتحركون في الأرض سائحون في أعمال التجارة في مختلف الأغراض يسافرون فيكون سفرهم أيضاً مما يصبح عبادة من خلال تأملاتهم، ومن خلال اهتماماتهم بواقع الحياة، ومن خلال اهتمامهم ببناء الأمة، فخبيرات من هنا ومن هنا يحصلون عليها في مجال بناء الأمة. سواء في تعاملهم مع الآخرين أو تعاملهم مع الله، هكذا { الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } {الرعد: من الآية ٢١} لأنهم مسلمون، ومستسلمون ونفوسهم سليمة، ومستسلمة لله ربهم وملكهم، وإلههم، وسيدهم، فهم لا يأنفون من أن يصلون ما أمر الله به أن يوصل، لأنهم عبدوا أنفسهم لله، { وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ } {الرعد: من الآية ٢١}، قلوبهم مملوءة بالخشية من الله، والخوف من يوم الحساب، أن يقفوا بين يديه فيحاسبوا حساباً عسيراً، لأنهم يعرفون ماذا وراء الحساب العسير أن وراءه النار.

{ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ } {الرعد: من الآية ٢٢} أليست هذه الصفات يحكيها كواقعة؟ صفات متجسدة فيهم في مختلف المجالات. { صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ } هذا هو الصبر العملي: الصبر على نقص، في الأنفس على نقص في الأموال، صبر على شوائب، صبر وهم يواجهون حصاراً اقتصادية، صبر وهم يواجهون هجمات إعلامية؛ لأنهم في ميدان العمل بوعي وثقة بالله وصدق مع الله، منطلقين في أعمالهم من واقع الوفاء بعهد الله، وموثيقه، والحرص على أن يصلوا ما أمر الله به أن يوصل فلا ينقطع في نصف الطريق الذي أمرهم الله بأن يواصلوا السير عليه، إلى الغاية المنشودة التي يجب أن يسعوا لأن يصلوا وهم في طريقهم إليها، وهم عندما يصبرون يصبرون ابتغاء وجه ربهم؛ لأنهم مخلصون له فلا ينتظرون ثناء من ذا أو من ذلك.

{ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ }، فهذا هو الصبر العملي، الصبر الذي منزلته من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. أما ذلك الصبر على الذل، الصبر على الخضوع، الصبر على القهر، الصبر والباطل يسود، والفساد ينتشر، والحق ضائع، والناس يظلمون، ويقهرون، وعباد الله يستضعفون، واليهود والنصارى يتحركون هنا وهناك، وأمريكا وإسرائيل تتحرك هنا وهناك، الصبر في هذه المرحلة هو ذل، لا يمكن أن يسمى صبراً، إنه ذل بكل ما تعنيه الكلمة، إنه ضياع للإيمان، إنه انحطاط في النفوس. هؤلاء المؤمنون يصبرون في ميادين العمل في مواجهة أعداء الله، ويتحملون مختلف الشوائب، مهما كانت؛ لأنهم صبروا ابتغاء وجه ربهم.

سواء طالت المرحلة أو قصرت، هم حتى لم يضعوا لأنفسهم حداً معيناً هناك، أننا نتحرك إلى هذا المستوى، إلى هذه النقطة، لا بأس سنصبر إلى هنا.. لا. هم صبروا ابتغاء وجه ربهم، وهذا هو الصبر في المجالات المفتوحة، في المجالات نحو الغايات الطويلة، نحو أداء المهام الكبيرة، فهم لا يقولون: فقط سنصبر إلى هنا ثم بعد لا. (وجه الله) الله لا يزال باقياً، وحاجتهم إليه كمؤمنين في أن يحصلوا على رضاه ما تزال أيضاً قائمة، فليس هناك حدود في ما بينهم وبين الله، ليس هناك نقاط تحدد ما يطلبونه من الله، وما يبتغونه، وما يعملونه ابتغاء وجهه.

ولأنهم يصبرون ابتغاء وجه الله يصبح للصبر طعمه الحلو لديهم فعلاً. كان يقول أحد الأئمة وهو يتشرد بأنه يرى نفسه في نعمة عظيمة، أنه أصبح يرى أنه استطاع أن يخيف الظالمين وأن يتخوف منهم، وهو يتشرد ويواجه التعب والجوع، أصبح بتلك الحالة التي تعتبر مظهراً من مظاهر الصبر وهو في ميدان العمل أصبح يراها نعمة، وليس الإنسان ينظر إلى النعمة نظرة يرتاح لها ويلتذ بها كأنهم -لأنهم صبروا ابتغاء وجه الله لا يرون أنفسهم، ولا ينظرون إلى واقعهم وهم في ميدان العمل فيرون أنفسهم أنه قد أجهدهم هذا فأصبحوا على حافة من الملل ومن التخلي، ومهما بلغت الأمور إليه، فالمسألة هي ازدياد من الصبر والازدياد من الصبر ابتغاء وجه الله، يعني الخطوة برضاه أكثر، والقرب منه أكثر.

{ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنقَضُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } {الرعد: من الآية ٢٢} لاحظوا كم تتكرر هذه الآيات وعلى هذا النحو الصلاة والإنفاق، الصلاة والإنفاق، فأين أولئك الذين يزعمون الناس بصلاتهم وبمكرفوناتهم، ثم لا ينفقون في سبيل

الله، ليفهموا أنه لا قيمة لصلاتهم إذا لم يتحركوا للإنفاق في سبيل الله، حين تصلي صلاة جديرة بأن ترفع لها ولو عدت أجهزة من مكبرات الصوت، صلاة ولو تريد أن يسمعها الناس على بعد مسافات بعيدة فلتكن صلاة معها ذلك المقوم الآخر الذي يجعلها قيمةً هو الإنفاق في سبيل الله سبحانه وتعالى.

وتأمل هنا في كم آيات يقرن الإنفاق في سبيله بالصلاة { وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً } {الرعد: من الآية ٢٢} في كل الحالات في كل الظروف، وهم أيضاً هؤلاء المؤمنون ممن يهمهم أمر دينهم، وأمر أمتهم فيحرصون جداً على وحدة كلمتهم، وصلاح ذات بينهم.

{ وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } {الرعد: من الآية ٢٢} يدفعون بالكلمة الحسنة، بالقضية الحسنة، بالموقف الحسن السيئة، الكلمة السيئة البادرة السيئة، الرذلة السيئة من طرف آخر منهم يدفعونها؛ لأنهم يعرفون قيمتها، أنه لا بد أن تتعامل هكذا فيما بيننا، لنحافظ على صلاح ذات بيننا، لنبقى أمة تستطيع أن تؤدي ما أوجب الله عليها، وما حملها، مسؤوليته من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل على إعلاء كلمته، وإصلاح عبادته، ونشر دينه، فهم حريصون.

وهم يعرفون قيمة ما يتركه الدرء بالحسنة، ما يتركه من أثر في الطرف الآخر، من خلال قول الله سبحانه وتعالى في آية أخرى { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } {فصلت: ٢٤}

أنا سأدفع السيئة التي بدرت منك بشكل زلة أدفعا بالكلمة الحسنة، ولا أرد بالكلمة عسراً، عندما تكون أنت طرف لا تزال إنسان لا تزال يمكن أن تسمى إنسان فأنت ستبادل الشعور وسأراك وأنت منكسر الخاطر أمام موقفي الحسن، فتصبح تنظر إليّ، وأنت تشعر بقربك مني وكأنك وليّ حميم أي صديق مقرب لي، هكذا يترك كظم الغيظ والعفو والدرء للسيئة بالحسنة، الدفع.

{ وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } {الرعد: من الآية ٢٢} العاقبة الحسنة في الدار في الدنيا وفي الآخرة، في الآخرة جنات عدن إقامة وخلود { جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ } {الرعد: من الآية ٢٣}. لاحظوا هذا التكريم الإلهي العظيم، الذي لم يتوقف على تكريمهم هم شخصياً بل أصبح جزئاً من تكريمهم أن يقرب إلى مكاتبتهم أفراد أسرته، وطبعاً أولئك الأفراد الذين يدفعون بك إلى هذه الميادين، وليس أولئك الذين يثبطونك، أولئك الذين يوبخونك، أولئك الذين يكبتون أيديك من أن تنطلق في أن تتحلّى بصفات أولياء الله.

لو عرف الآباء والأمهات والأبناء أنه من النعمة العظيمة عليّ أن يكون لدي ابن صالح ينطلق في هذه الأعمال الصالحة، في هذه الميادين التي ترضي الله سبحانه وتعالى فيحظى على المكانة العظيمة، وأنا أشده، وأنا أشجعه، وأنا أدمعه، وأنا أؤيده، وأنا أقف معه فقد يحظى ابني هذا بمكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، فيكون قريبه هو الذي يساعد من منطلق التكريم له. أن أحظى أيضاً بالقرب من المكان الذي هو فيه، والجنة درجات عظيمة { وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً } {الاسراء: من الآية ٢١}.

هذا بالنسبة للأب أمام ابنه الصالح، كذلك الابن أمام أبيه الصالح وأنت ترى أباك يتحرك في هذه الميادين، لا تحاول أن تثبطه، لا تنطلق منك كلمة تثبطه. إذا كنت ترى أباك وهو ينطلق في ميدان من هذه الميادين فتشجعه إذا كنت مؤمناً، قد يكون أبوك في ما هو عليه هو مؤهل لأن يصل إلى درجة عالية فإذا ما لحقته بإيمان ستكون من المقربين معه في تلك الدرجة، تكريماً لأبيك. { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } {الطور: من الآية ٢١}.

كذلك الزوجات، كذلك الأزواج { وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ } {الرعد: من الآية ٢٣} تلك الزوجة التي تشد زوجها، وهو في هذه الميادين ينطلق ليعمل، تشجعه حتى لو خرج مقاتلاً في سبيل الله، لا تبكي، بل تشجعه تودعه بعبارات التشجيع، بعبارات تبقى حيّة في نفسه، تدفعه، تشد من أزره، تلك الزوجة التي لا ترهق زوجها

بتصرفاتها العشوائية داخل منزله، فتبعثر الكثير من أمواله فترهق كاهله فلا يكاد كل ما ينتجه يوفر إلا حاجات منزله لا يستطيع أن يُسهم في مجال الإنفاق في سبيل الله، ليكتمل له دينه من خلال صلاته وإنفاقه. تلك الزوجة التي لا تزج زوجها وهو يفكر في ما يهم أمر الأمة، فيما يجب أن يهتم به من أمر دينه وأمنه، تلك الزوجة التي لا يكون همها أن يبقى عندها يسامرها ساعات بعد ساعات، زوجة صالحة. وما أعظم دور الزوجات الصالحات في الدفع بالرجال، ما أعظم المرأة الصالحة التي تساهم في صنع الأبطال، صنع الرجال، صنع المجاهدين في سبيل الله.

يقال أن الإمام الخميني (رحمة الله عليه) ذلك الرجل العظيم الذي استطاع بإيمانه وشجاعته وقوة نفسه أن يكون على هذا النحو الذي خلق فعلاً تجديداً في العالم، وخلق صحوة إسلامية، وأرعب أعداء الله، وعمل على إعادة الثقة لدى المسلمين بدينهم، يقال: أن خالته - وهي من تولت تربيته- كانت تقول له: [أنت عظيم، أنت بطل، أنت ستكون شجاعاً، أنت ستكون بطلاً، أنت ستكون عظيماً]. تلقنه هذه العبارات وهو ما يزال طفلاً فنشأ فعلاً عظيماً كبيراً، نشأ فعلاً بطلاً شجاعاً مقداماً أروع أميركا وأروع دول الاستكبار كلها.

وليست تلك الأم أو تلك المريبة التي همها فقط أن يسكت ابنها فبأي عبارات مزعجة مقلقة تحاول أن تسكته. المرأة تقع عليها مسؤولية كبرى جداً، وهي زوجة، وهي أم، وهي قريبة من هذا الطفل، تربية وهي قريبة من هذا الرجل، تؤيده وتدفع به وتصبّره وتشجّعه.

لقد بلغ الأمر بالنساء الإيرانيات أن أصبحن يفتخرن، تفتخر إحداهن بأنها أصبحت أم أربعة شهداء، وأخرى تفتخر بأنها أصبحت أم ثلاثة شهداء، وهكذا أصبحن يتفاخرن بأنهن أمهات شهداء، وزوجات شهداء.

مثل هذه الزوجة وهي في بيتها هي من سيكون لها ذلك الموقع العظيم إذا ما لحقت زوجها بإيمان وصلاح، وتقوى أن تحظى بالقرب منه في درجته كشهيد مجاهد، وهي درجة عالية { وَفَصَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً } (النساء: من الآية ٩٦) فهي في بيتها تحظى بهذه المكانة.

ذلك الزوج أيضاً الذي يرى لدى زوجته اهتماماً من خلال ما تقرأه أو تسمع مما ترك لديها عمقاً إيمانياً فأصبح لديها اهتمام بأن تُسهم بمالها، بأن تُسهم في مجال تربيتها لأولادها، فهي تحرص على أن ينشئوا رجالاً صالحين، رجالاً جنوداً لله سبحانه وتعالى، أنصاراً لله فلا يثبطها ولا يشغلها بأعمال قد لا تكون تمس الحاجة إليها، ولا يرهقها بأعمال قد يكون في غناء عنها، فيما يتعلق بمعيشته، يفسح لها المجال. أفراد الأسرة إذا ما انطلقوا هكذا يشد بعضهم بعضاً، فقد يحضون كلهم بالقرب، بأن يصلوا إلى تلك الدرجة التي يصل إليها واحد منهم عظيم، أليست هذه نعمة عظيمة داخل الأسرة؟ بواسطة الأب قد تلتف الأسرة في جنات عدن في مقام واحد، بواسطة الابن تلتف الأسرة ويجتمع شملها في مكان واحد في الجنة، وقد يكون مكاناً عالياً ببركة ذلك الابن، الأسرة ببركة تلك الزوجة، ببركة ذلك الزوج، ببركة تلك الأم قد يصلون إلى تلك الدرجة. لكن فيما إذا كانوا على هذا النحو يشد بعضهم بعضاً.

وفعلاً يختلف الأفراد في الأسرة أحياناً باعتبار واقع عملهم فيكون بعضهم له دور كبير يحظى بمكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، فتكرم كل أفراد أسرته من أجله، فتصل إلى تلك الدرجة العظيمة التي وصل إليها؛ لأنها كانت تشجعه، كانت تأيده، كانت تقف معه.

أما أولئك الذين يشبطون بعضهم بعضاً فسيكون البون بينهم شاسعاً قد لا يكون ولا حتى داخل الجنة، قد يكون خارجها هذا في النار، في قعر جهنم، وهذا في الدرجات العليا في الجنة، هذا هو شتات الشمل الرهيب، هذا هو شتات الشمل الرهيب في العالم الأبدى، في عالم الآخرة.

ولمكانتهم العظيمة عند الله، ولعظم ذلك النعيم الذي أصبحوا يحضون به في جنات عدن، الذي ليس نعيماً مادياً فقط بل تكريم تكريم، وعلى أيدي أولئك المكرمين من عباد الله. الملائكة { وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } (الرعد: ٢٤) هؤلاء هم المؤمنون، هؤلاء هم من يكونوا أخوة كما قال الله سبحانه وتعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } (الحجرات: من الآية ١٠) لأن واقعهم في اهتماماتهم، في توجههم، في شعورهم

بمسؤولية واحدة هو الذي يجعل منهم فعلاً إخوة، أخوة إيمانية، وما أعظم وأقوى روابط الإيمان بين أفراد المجتمع فيصبحون إخوة بما تعنيه الكلمة، أكثر من علاقة الأخوة التي سببها الضُّلْب والبطن الواحد، إن هذه أخوة الدين الواحد، والهَمَّ الواحد، والمسئولية الواحدة والمصير الواحد هكذا { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (يونس: ٦٢). هؤلاء هم المؤمنون { وَكَانُوا يَتَّقُونَ }

يعرض في آية واحدة بعض صفات المتقين، ونحن فعلاً - كما قلنا لكم - نفهم المؤمنون هم المتقون المتقون هم المؤمنون، إنما التقوى حالة يخلقها الإيمان الواعي الصادق، تصبح إذاً كلمة [التقوى] تتقي أي تحذر، فتصنع وقاية تنطلق لتتقي نفسك من غضب الله، من عقوبته، عقوبة التفريط، الغضب، للتفريط سواء بارتكاب معصية، أو التفريط في أداء عبادة، أو التفريط في أمر من الأمور التي الله يريد منك أن تتحرك فيها، في آية واحدة يقول عنهم { قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ دَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } (آل عمران: ١٥).

من هم المتقون؟ { الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْرَبْنَا ذُنُوبَنَا وَوَقْنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَابِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ } (آل عمران: ١٧) صدق الله العظيم.

أَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَوْلِيَاءِهِ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَحَلَّوْنَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَهْمَةِ فِي مَخْتَلَفِ مَجَالَاتِ حَيَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَمَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَحْضَرُونَ بِالْجَنَّةِ وَبِالرِّضْوَانِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.
وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ،،،

[الله أكبر / الموت لأمریکا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد
بإشراف
يحيى قاسم أبو عواضة
بتاريخ ١ / رمضان / ١٤٢٧ هـ
الموافق ٢٣ / ٩ / ٢٠٠٦ م